- ٣ -

الإسراء

ومات أبو طالب.. بعد خديجة بعدة شهور.. وشيعه النبى إلى قبره باكيا حزينا .. وما أعظم النبى الكريم فى وفائه.. إنه القائل عن عمه:

- «ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه إلا بعد وفاة أبى طالب»..

وكان هذا العام الذى فقد النبى الكريم الزوجة والعم هو عام الحزن، وكان قبل ثلاث سنوات من الهجرة..

وتمضى أيام رسول الله وهو دائب العمل على نشر لواء الإسلام مهما كانت الصعاب. ومهما كانت أهوال الطريق.. وما أكثر ما تعرض له عليه الصلاة والسلام من جهل الجاهلين وحقد الحاقدين.. وأوذى فى جسده. وفى أصحابه .. وبلغ ببعض السفهاء أن يرموا عليه القاذورات وهو ساجد لربه فى بيته الحرام.. ويبلغ صلف قريش وجهالتها القمة، يوم تقرر فى صحيفة ظالمة أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى عبد المطلب.. وظلت هذه المقاطعة ثلاث سنوات كاملة.. عاش أثناءها النبى فى سقيف شعب أبى طالب ويبلغ الظلم مداه حين يطالبون من الذين تزوجوا من بنات النبى أن يطلقوهن.. وقد طلق عتبه وعتيبه أبناء أبى لهب بنتى رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم. ورفض أبو العاص بن الربيع أن يطلق زينب بنت النبى ﷺ.

محن كثيرة.. تعرض لها النبى.. وتحملها بما يحمل فى قلبه الكبير من إرادة، ومن حب لا مثيل له لله سبحانه وتعالى.. إن حبه الكبير لله.. وحرصه على تبليغ الرسالة هان أمامهما كل شئ.

لم يأبه حتى لجيرانه الذين آذوه.. عمه أبو لهب وعقبة بن أبى معيط..

والحكم بن العاص.. وعدى الثقفى.. كان جوارهم من أسوأ الجيرة فما أكثر ما تعرض للأذى منهم.. وخاصة من زوجة عمه أبى لهب.. وهى أم جميل بنت حرب.

..و..ما أكثر ما تقولوا على الرسول الكريم .. وهو الذى أطلق عليه الأمين، قبل أن يظهر فيهم نور الإسلام.

صعوبات هائلة قامت أمام الرسالة والرسول.. تحملها النبى وصبر.. وبموت خديجة وأبى طالب.. زادت أحزان النبى وقرر أن يخرج من مكة التى ظلمت وبغت على ابنها البار.. إلى الطائف.. انه يريد أن يجد أعوانا جددا.. يصدقونه.. حيث كذبته قريش.. وتؤازره حيث خذلته بلده.. كان أمله أن تؤمن به ثقيف.. ذهب إليها ومعه زيد بن حارثة.. سار إلى هذه المدينة التى تبعد عن مكة سبعين ميلا على قدميه، وكانت تعبد (اللات).. واللات شجرة كانت تقدسها وتقدم لها القرابين، وقال البعض إنها صخرة يقدسونها.. عشرة أيام قضاها النبى فى الطائف لم ير من أهلها أى ترحيب.. أداروا له ظهورهم، واستهجنوا دعوته .. وبلغت الوقاحة أقصى ذراها من أبناء عمير بن عوف.. وكانوا ثلاثة «عبد يا ليل، ومسعود، وحبيب».

سخروا منه عليه الصلاة والسلام عندما دعاهم إلى الإسلام وقال أحدهم: أما وجد الله غيرك يرسله.

وقال الآخر: هو ينزع ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك!!

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا.. لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام. ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغى لى أن أكلمك.

وأغروا به سفاءهم وعبيدهم وألجأوه إلى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة واحتمى الرسول الكريم فى ظلال البستان وهما يتابعانه وجلس الرسول

الكريم وقد أدمى هؤلاء السفهاء قدميه وتوجه بكل كيانه إلى الله بهذا الدعاء العظيم.

- «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى. وقلة حيلتى. وهوانى على الناس. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى. إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟.. إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى.. ولكن عافيتك أوسع لى.. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات.. وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة. من أن تنزل بى غضبك. أو يحل على سخطك. لك العتبى حتى ترضى. ولا حول ولا قوة إلا بك».

ويجد عتبة وشيبة ما حل بالنبى الكريم فيرق قلباهما له. ويأمران غلامهما واسمه عداس أن يأخذ قطفا من العنب للنبى الجالس تحت ظلال البستان.. ويرقبان الغلام وهو يقدم للنبى العنب.. ووضع الغلام العنب أمام النبى ليأكل.. فمد النبى يده ليأكل وهو يقول: باسم الله.

وتعجب عداس ونظر إلى وجه الرسول. فليس من عادة أهل هذه البلاد أن يبدأوا أكلهم بذكر الله.

قال للنبى: هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد.. سأله الرسول: من أى البلاد أنت؟.. وما دينك؟ قال عداس: نصرانى.. وأنا رجل من أهل نينوى.

قال رسول الله ﷺ: من بلد الرجل الصالح يونس بن متى؟

قال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟

قال النبى: ذاك أخى.. كان نبيا وأنا نبى..

فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.. وآمن بدعوته.. ودهش الرجلان لما فعله الغلام وسألاه عما فعل فقال لهما:

- يا سيدى ما فى الأرض شئ خير من هذا، لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى.

قالا له: ويحك يا عداس.. لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه.

ويقرر النبى الكريم.. وفى النفس ما فى النفس من أحزان أن يعود إلى مكة.. فما حقق ما كان يصبوا إليه من إسلام ثقيف.. ولابد أن قريشا وقد غاب عنها عشرة أيام قضاها فى الطائف.. قد هزها هذا الخبر وباتت تتربص به.. وما له فيها من نصير بعد وفاة عمه أبى طالب وزوجته خديجة.

وواصل النبى مسيرته.. وعند (بطن نخلة) فى الطريق قام يصلى ويقرأ القرآن فى الليل.. واستمع إلى تلاوته نفر من الجن.. فأمنوا به.. ويقص علينا القرآن الكريم هذا بقوله فى سورة الأحقاف:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

وظل النبى فى هذا المكان ثلاثة أيام، ثم بعث إلى المطعم بن عدى وهو مازال على الكفر - ليدخل مكة فى جواره، فأخذت الرجل النخوة العربية. وطلب من أولاده الستة أن يتسلحوا.. ووافق على طلب النبى عليه الصلاة والسلام، وتوجه النبى إلى الكعبة فطاف بها، وأولاد المطعم والمطعم حوله.. خوفا عليه من مكة.. ولكن أهل مكة آثروا السلامة. فلم يعترضوا النبى..

وظل النبى بعد هذا اليوم.. يدعو القبائل التى تأتى إلى مكة للإسلام.. ويتعرض لما يتعرض له من السفهاء.. ويعبر عن ذلك ابن عباس فيقول:

- «انى لغلام شاب من أبى بمنى. ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول يا بنى فلان.. إنى رسول الله إليكم، يأمركم أن

تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا. وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد. وأن تؤمنوا بى. وتصدقونى، وتمنعونى. حتى أبين عن الله ما بعثنى به، قال: وخلفه رجل أحول وضئ. له غديرتان عليه حلة عدنية فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه. قال ذلك الرجل: يا بنى فلان إن هذا يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من غنائكم. وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن قيس. إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه. قال فقلت لأبى: يا أبت، من هذا الذى يتبعه ويرد عليه ما يقول.

قال: هذا عمه عبد العزى بن المطلب (أبو لهب)».

وبعد الطائف..

كانت هذه المرحلة الروحية العظيمة التى أعدها الله سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام.. كانت رحلة الإسراء والمعراج..

.. بعد رحلة الطائف التى ذهب بها الرسول الكريم سيرا على الأقدام.. وكان يهدف من ورائها إلى نشر نور الإسلام فى هذه المنطقة، حتى يمتد نور الإسلام، وبعد أن سارت الدعوة بطيئة فى مكة.. فقد ظل تسع سنوات كاملة لم يجد من أهلها ألا آذاناً كأن بها وقرا.. وآمن بها قليل من ذوى الجاه والثراء وأغلبية من الضعفاء والفقراء.. وهؤلاء الناس أصبحوا فيما بعد مشاعل أضاءت أنوارها فبددت ظلمات الجهالة وكانوا فرسانا بالنهار عابدين قانتين فى الليل.. ولكن رحلة الرسول فى الطائف لم يجن الرسول من ورائها سوى استهزاء المستهزئين.. وتعنت وجهالة الجاهلين .. فما استجابوا لدعوة الرسول حين دعاهم.. وعاد عليه الصلاة والسلام إلى أم القرى وأخذ يعرض نفسه على القبائل المختلفة لتخرج الدعوة إلى نطاق أوسع وأرحب وأشمل. وبينما كان النبى يواصل جهاده العظيم من أجل الدعوة، حدث الإسراء والمعراج..فقد أسرى برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى

ومن المسجد الأقصى عرج به إلى السموات العلى، حتى وصل إلى سدرة المنتهى..

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الإسراء بقوله:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وفى هذه الكلمات البليغة الموجزة عبر القرآن الكريم عن هذه الرحلة التى رأى فيها الرسول الآيات..

ووصف القرآن المعراج بقوله:

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١١-١٨].

وكان الإسراء والمعراج بصحبة جبريل عليه السلام..

وفى الإسراء صلى النبى عليه الصلاة والسلام، إماما بالمرسلين فى بيت المقدس، وعند صعوده إلى السموات العلا فرضت الصلاة..

وحديث الإسراء والمعراج شغل العديد من الدراسات فى مختلف عصور الفكر الإسلامى ..واختلف الدارسون حوله.. فقال البعض أن الإسراء والمعراج كان بالروح وليس بالجسد معتمدين على حديث لعائشة رضى الله عنها وآخر لمعاوية بن أبى سفيان، ولم تكن عائشة قد تزوجت بالرسول، ولا كان معاوية بن أبى سفيان قد أسلم بعد.. فهما حديثان مشكوك فيهما، ومضمونهما أن الإسراء كان بالروح فقط..

وهناك من قال أن الإسراء كان بالجسد، والمعراج كان بالروح.. ولقد كثر الجدل والنقاش حول هذه النقطة.. هل هو بالروح أم هو بالجسد؟ ولا أعرف

لماذا كل هذا الإسراف فى الجدل.. فالقرآن تحدث عن الإسراء والمعراج.. فلا مجال إلى الإنكار إذن.. أما كونه بالروح أم بالجسد، فمحمد لم يسر بنفسه إلى المسجد الأقصى، ولا عرج بنفسه إلى السموات العلا، ولكن كان ذلك بأمر من الله، والله مقدرته لا تقاس بأى مقياس لأنه جل جلاله يقول للشئ كن فيكون.. فلماذا نستغرب أن يكون الإسراء والمعراج بالروح والجسد، ولكن لو أن النبى عليه الصلاة والسلام قال عن إسرائه ومعراجه أنهما بالروح ما استنكرهما أحد من كفار مكة، فأنت فى رؤيا المنام ترى ما تراه، ولا يستطيع أحد أن يكذبك.. ولكن لأن النبى تحدث على أساس أن رحلته كانت بالروح والجسد.. من هنا كان استنكار كفار قريش، واستعجابهم من رحلة إلى بيت المقدس تقطع فيها أكباد الأبل فى الذهاب شهرا وشهرا فى العودة، فكيف يذهب ويعود إليها محمد فى نفس الليلة.

وقد اختلفت الروايات حول ميعاد الإسراء.. فهناك من قال إنها فى السابع والعشرين من رجب، وقال البعض الآخر أنها كانت فى الليلة السابعة عشرة من رمضان، كما اختلفوا فى سنة الإسراء، قال البعض أنها كانت قبل الهجرة بستة عشر شهراً، وقال البعض إنها كانت قبل الهجرة بسنة.. وعلى كل الأحوال فإذا كان الرواة قد اختلفوا فى تحديد موعد الإسراء. فلم يختلف أحد منهم على أن النبى عليه الصلاة والسلام قد أسرى به، وعرج إلى السموات العلا.

وقد قال البعض أن الإسراء وإن كان بالروح والجسد. فإن المعراج كان بالروح. واستدلوا بقوله تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقالوا أن هذه الآية تشير إلى المعراج.. وأنه كان رؤيا .. ولا أدرى لماذا يصر هذا البعض على أن المعراج كان بالروح.. فالله قادر أن يرفع رسوله إلى السموات العلا.. وأن هذا الأمر المعجز ليس معجزا بالنسبة لله .. فالمعراج

كان بالجسد والروح. ولقد سئل النبى عليه الصلاة والسلام كيف رأى الله. عندما صعد إلى سدرة المنتهى قال:

- «إنه نور أنى أراه»..

وفى رواية أخرى:

- «رأيت نورا»..

وما أكثر الروايات التى رويت عن الإسراء والمعراج، ولكن نقف عند رواية البخارى التى رواها أنس بن مالك عن النبى عليه الصلاة والسلام.. قال:

- «أتيت بالبراق فركبته حتى أتيت بيت المقدس، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فأتانى جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فأخذت اللبن، فقال جبريل: أخذت الفطرة..

ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال محمد، قيل: أوقد بعث إليه؟.. قال: قد بعث إليه.. ففتح له فإذا بآدم فرحب بى.. ودعا لى بخير..

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل.. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل.. قيل: ومن معك. قال: محمد.. قيل: أوقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه.. ففتح له، فإذا بابنى الخالة يحيى وعيسى بن مريم فرحبا بى، ودعوا لى بخير.. ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة ففتح لنا فإذا بيوسف، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن، فرحب بى ودعا لى بخير.. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فإذا بإدريس رحب بى ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فإذا بها نوح فرحب بى ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فإذا بموسى رحب بى ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فإذا بإبراهيم مسندا ظهره إلى البيت المعمور.. وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

ثم ذهب إلى سدرة المنتهى، فإذا أوراقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر ربى ما غشيها تغيرت، فما من أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها.. فأوحى الله إلى ما أوحى..

ففرض علىّ وعلى أُمتى خمسين صلاة كل يوم وليلة..

فنزلت إلى موسى فقال: ما فرض ربك على أمتك؟

قلت: خمسين صلاة فى اليوم والليلة..

قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك..

قال: فرجعت إلى ربى، وسألته التخفيف، فحط عنى خمسا بعد خمس وأنا أسأله التخفيف حتى جعل الصلاة خمسا فى اليوم والليلة، وجعل ثوابها كثواب الخمسين»..

ولقد عاد رسول الله فى نفس الليلة إلى مكة ونام فى فراشه..

وفى الصباح تحدث الرسول عن إسرائه ومعراجه .. فإذا بأبى جهل يدعو الناس إلى أن يستمعوا إلى النبى.. وقد وجدها فرصة يضرب بها الدعوة المحمدية.. فما يقوله محمد لا يصدقه بشر.. إنسان يذهب إلى بيت المقدس، ثم يصعد إلى السماوات العلا فى ليلة واحدة.. وارتد بعض ضعاف الإيمان. وذهب بعضهم إلى أبى بكر الصديق يخبره بما تحدث به النبى عن إسرائه ومعراجه، وكانوا يتصورون أن أبا بكر سوف ينكر ما يقوله صاحبه.. وأنه سوف يرتد عن دينه.. وهنا يتجلى إيمان أبى بكر، فقد سمع ما يقوله الناس عما يرويه النبى عليه الصلاة والسلام، وكان جوابه:

- إن كان قال.. فقد صدق..

ومن ذلك اليوم لقب بالصديق..

وكان موسم الحج قد اقترب.. فأراد النبى عليه الصلاة والسلام أن يبلغ الدعوة إلى من يلقاهم من رجال القبائل الأخرى.. وقد التقى بستة رجال من أهل يثرب.. أخذ يشرح لهم تعاليم ما جاء به من الرسالة .. واقتنع الرجال الستة.. وفى الموسم التالى اجتمع النبى برجال من يثرب واثنى عشر رجلا.. آمنوا به.. وصدقوه.. ووعدوا النبى أن يسيروا على نهج ما قاله لهم.. وأرسل النبى إلى المدينة مصعب بن عمير.. وكان ذكيا ورعا، وكان يلبس أجمل الثياب وأرقها يوم كان على الشرك.

وقد حاولت أمه وكان اسمها خناس بنت مالك أن تثنيه عن عزمه، ويرجع إلى الكفر فرفض أن يستجيب لنداء أمه الثرية، وهاجر إلى الحبشة مرتين.. فرارا بدينه الذى تغلغل فى أعماقه حتى النخاع .. ولقد عاد إلى مكة .. وتحدى والدته.. بعد أن حاول أن يدخلها فى نور الإسلام، ولكنها عاشت فى ظلام جاهليتها.. وعاش هو لدينه.. لا يهمه الملابس الناعمة التى كان يلبسها، ولا ترف العيش الذى كان يعيش فيه.. كان نور الإيمان فى قلبه يضئ له ظلمات الحياة. وكان يضفى عليه سعادة لا تقدر بمال، ويرسم له منهاج حياة لا ترسمه له كل كنوز الدنيا.. وكان النبى ﷺ يراه فى ثيابه البالية فيقول:

- «لقد رأيت مصعبا هذا، وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه، لقد ترك ذلك حبا لله ورسوله»..

.. هذا الفتى المؤمن.. أرسله النبى إلى يثرب، مع الاثنى عشر الذين آمنوا بالرسالة.. وفى المدينة كان سفير النبى الكريم، يقوم بمهمته الجليلة.. بذكاء وإيمان واقتدار، حتى أن موسم الحج التالى كان يضم وفدا من أهل يثرب عددهم سبعون مؤمنا ومؤمنة..

إن النبى ﷺ يعرف كيف يختار سفراءه.. لقد جاء مصعب مع هؤلاء المؤمنين من أهل يثرب، وعند انتهاء مناسك الحج، كان أفراد القبائل يركبون

إبلهم عند الفجر متجهين فى كل اتجاه للقاء الرسول . . وعند العقبة . . وفى هدأة الليل التقى النبى ﷺ بمسلمى يثرب. وكان مع النبى العباس عمه. ولم يكن العباس قد أسلم. . ولكنه ذهب مع ابن أخيه بدافع حب الرحم. . وحب ابن أخيه محمد.

لقد جلس النبى مع مسلمى يثرب. . وتكلم عمه العباس فقال:

- «يا معشر الخزرج. . إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قريش فهو فى عز من قومه، ومنعة فى بلده، وانه قد أبى إلا الانحياز إليكم. . واللحوق بكم. . فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك . . وإن كنتم ترون إنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه» . .

وتحدث أحد زعمائهم ردا على كلمة العباس عم النبى ﷺ .

- إنا والله لو كان فى أنفسنا غير ما نطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق. . وبذل أرواحنا دون رسول الله ﷺ.

وطلب أن يتحدث الرسول العظيم. . وساد الصمت وسط الشعب . . وما كان هناك سوى أضواء القمر تسكب أشعتها على هذا الجمع المؤمن. .

قال رسول الله ﷺ:

تبايعوننى على السمع والطاعة، والنشاط والكسل (يعنى الحرب والسلام). . والنفقة فى العسر واليسر. . وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. . وأن تقولوا فى الله لا تخافوا فيه لومة لائم. . وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم. . وأزواجكم وأبناءكم. .

وران الصمت على الجمع المؤمن فى العراء. . وتحدث البراء:

- نعم والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أعراضنا وأحسابنا، فبايعنا يا رسول الله. فنحن والله أبناء الحرب، ورفقاء السلاح، ورثنا كابرا من كابر.

وقال أحدهم وهو أبو الهيثم بن التيهان موجها حديثه لرسول الله..

- يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها (يقصد اليهود) فهل عسيت إن قبلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا..

ابتسم الرسول الكريم وقال:

- بل الدم الدم.. والهدم الهدم.. أنا منكم وأنتم منى.. أحارب من حاربتم.. وأسالم من سالمتم.

واختار النبى منهم اثنى عشر نقيبا على قومهم.. تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس..

وكانت هذه هى بيعة العقبة الكبرى.. وكانت نقطة انطلاق هائلة للدعوة.. فقد توجت جهاد النبى العظيم فى مكة.. التى ظل بها ثلاثة عشر عاما يدعو إلى الله فما استجاب له إلا قلة ضئيلة من الضعفاء الذين لا يمكنهم أن يجابهوا صلف قريش.. إنها انطلاقة ضخمة للإسلام، فقد آن الآوان أن تنطلق الدعوة بكل ثقلها، عندما يقرر النبى ﷺ الهجرة إلى يثرب، لتأخذ الدعوة مساراً حاسماً، ويبدأ قيام الدولة الإسلامية..

ولقد كانت قريش تخشى ذلك كل الخشية، وتخاف أن يظهر نور الإسلام فتضيع مكانتها بين العرب، وكانت تتجسس على النبى ﷺ، وتخاف كل الخوف أن يعقد مع قبيلة من القبائل معاهدة، وكانت أخوف ما تكون أن يكون النبى قد تعاقد مع يثرب على شئ.. وما كانت تدرى شيئا عن بيعة العقبة التى عقدها النبى مع مسلمى يثرب سرا.. ولكنهم مع ذلك قد دفعهم تخوفهم أن يسألوا أهل يثرب القادمين للحج إن كان شئ من ذلك قد حدث.. ولم يكن المشركون من أهل يثرب يعلمون ما تم بين النبى وبين مسلمى يثرب.. فكذبوا ما تردد من أهل مكة أنهم جاءوا ليهاجر النبى معهم، ويحموه.. ويناصروا دعوته..

ولقد كانت هذه البيعة، مع هؤلاء النفر من الأوس والخزرج نقطة تحول خطيرة فى التاريخ كله.. لانهم استطاعوا بالفعل أن يجعلوا من هذا اليوم بداية انطلاقة ضخمة للإسلام.. ومسيرة الدعوة.

هذه أيام رسول الله تمر فى أم القرى.. ثلاثة عشر عاما قضاها يدعو الله بالحسنى.. ثلاثة وخمسين عاما قضاها بين ربوعها طفلا فقد والديه.. ولكنه يجد العناية الرحيمة من جده عبد المطلب ومن بعده عمه أبى طالب..

وصبيا دائم التأمل.. كثير التفكير.. يرعى الغنم.. وشابا تحيطه العناية الإلهية وتهيئة لتحمل أعباء أعظم رسالات السماء.. فهو دائم التأمل فى رحاب الكون.. كثير التفكير.. عازف عما درج عليه الناس من عبادات وعادات وتقاليد.. وقد عرفه الأصدقاء أمينا.. اجتمعت له صفات الأخلاق الحميدة، كما اتسم بجمال الخلقة.. ورجاحة العقل.. وقد كان القاضى عياض حصيفا وهو يصفه بقوله:

- وأما فصاحة عقله، وذكاء لبه، وقوة حدسه، وفصاحة لسانه.. واعتدال حركاته.. وحسن شمائله، فلا مرية أنه كان أعقل الناس.. وأذكاهم.. ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسته العامة والخاصة مع عجيب شمائله، وبديع سيره، فضلا عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه لم يمتر فى رجحان عقله.. وثقوب فهمه.. لأول بديهية.. وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره لتحقيقه..

ولقد وهب بن منبه، قرأت فى واحد وسبعين كتابا، فوجدت فى جميعها أن النبى ﷺ أرجح الناس عقلا، وأفضلهم رأيا، وفى رواية أخرى فوجدت فى جميعها أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل فى جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا..

فالنبى كان راجح العقل، قوى المنطق، بليغا، فصيحا، شجاعا عف اللسان.. صدوقا.. يحسن مقابلة الناس.. فهو على حد تعبير أبى هريرة.

- كان يقبل جميعا، ويدبر جميعا، بأبى وأمى لم يكن فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا فى الأسواق.. وكان يحب أن يكون كواحد من الناس.. وكان يقول لأصحابه:

- «لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله ورسوله»..

ومع أنه نبى مرسل.. وأنه سيد الأنبياء والمرسلين.. وأن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. فهو العابد شديد العبادة لله.. إن عبادته عبادة معرفة.. عبادة من يعرف فضل الله سبحانه وتعالى عليه.. هذه المعرفة يمكن أن نقترب منها.. ونحن نقرأ ما رواه الترمذى عن أبى ذر عن النبى ﷺ:

- «أنى أرى ما لا ترون.. واسمع ما لا تسمعون.. أطت السماء وحق لها أن تئط.. ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله.. والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا»..

وهو مع كل ذلك الزاهد فى متاع الدنيا.. أو على حد تعبير عائشة رضى الله عنها:

- والذى بعث محمدا بالحق. ما رأى منخلا. ولا أكل خبزا منخولا قط منذ بعثه الله تعالى عز وجل، إلى أن قبضه..

وهل يمكن أن نتحدث فى تفصيل عن تكامل شخصيته وجلالها وعمقها واستنارتها أكثر مما فصله القرآن الكريم بقوله المعجز:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقوله:

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أيام رسول الله ﷺ فى مكة كلها طهر وطهارة، وتقوى وورع ورحمة بالفقراء والضعفاء.. إنها الأسوة والقدوة الحسنة .. وسلوكه منهاج لما ينبغى أن يكون عليه سلوك المؤمن.. وتصرفاته هى ما ينبغى أن تكون عليه تصرفات المؤمن، لأن خلقه هو القرآن .. وقد كان سلوكه وأخلاقياته هى التطبيق العملى لما جاء به القرآن الكريم..

* * *

obeikandl.com